البراغماتية بين العقل والتصوف

(شارل ساندرز بورس نموذجا)*[1]

حيرش سمية

قسم الفلسفة- جامعة وهران

«إذا كان على البراغماتية أن تجعل من الفعل وحده جوهر الكائن الإنساني وهدفه الأسمى، فإنها ستحكم بذلك على نفسها بالإعدام، لأن ذلك سيعني أنه لا وجود لأي سلوك عقلاني».[2] «ش.س.بورس»

1-مدخل:

ظلت الفلسفة البراغماتية،عامة، والبرغماتية البورسوية(نسبة إلى شارل ساندر بورس)، خاصةCh.S.Peirce، منذ القرن التسع عشر وحتى نهايات القرن العشرين ،تقريبا، مقرونة لدى العديد من الأمريكيين ومن غير الأمريكيين، (ومن بينهم العرب) بالنجاح، المادي، الذي حققته الولايات المتحدة الأمريكية في مختلف الميادين، خاصة العلمية والتقنية، والاقتصادية والسياسية.

من هنا ذلك الاهتمام غبر المسبوق الذي عرفته هذه الفلسفة، (أو بالأحرى،هذا المنهج الفلسفي، الذي تغذى من العديد من التيارات الفلسفية، خاصة الأوروبية، والدينية المسيحية)، داخل الولايات المتحدة الأمريكية، التي جاءت معبرة، أولا، عن

1 –هو المؤسس الأول للمنهج البراغماتي. ولد سنة 1839 بمدينة «كامبريدج» بالولايات المتحدة الأمريكية. تعلم الرياضات و غيرها من العلوم الأخرى ، خاصة التجريبية منهها. شغل بعد ذلك العديد من المناصب، الإدارية و الجامعية، خاصة في جامعة «هارفار وهوبكينغ».. «النادي أسس المتافيزيقيي» لنقد هذه الأخيرة . كتب العديد من الكتب والمقالات حول مذهبه أو منهجه هذا. منها «كيف نجعل افكارنا واضحة»؟ «وتثبيت الاعتقاد» ، «وجوهر البراغماتية «..الخ....وقد جمعت أهم أعماله بعد وفاته في ثمانية أجزاء تحت عنوان «مجموعة الأوراق1958-1960. .
، توفي سنة 1914.(collected - papers)

2 _Michael Novak : la philosophie réinventée,Charles scibner's Sons,1976.

واقعها الإنساني المتعدد الأجناس والديانات والثقافات، قدر تعبيرها عن واقعها السياسي وا العلمي والتقني.

على أننا نود، قبل أن نعرض لهذه الفلسفة، أو المنهج، أن نعرفها وأن نحدد كذلك ما نقصده بالعقل وبالتصوف، خاصة بالنسبة لها، كما سنعرض كذلك لجذورها ولمفهومها للمعرفة وللحقيقة.

أ-تعرف البراغماتية، (le pragmatisme)، عامة، التي وصفها البعض" بأنها فلسفة الفلسفة الأمريكية" وبفلسفة العصر الذهبي لأمريكا" [1] عامة بأنها" نظرية فلسفية في المنهج"، أسسها، في نهايات القرن الثامن عشر للميلاد "شارل ساندرز بورس"، وعرفها بأنها "منهج يرى أن"حقيقة أي شيء هي مجموع أثاره، وأنها كامنة في التجربة الإنسانية"، كما يرى كذلك وبالتالي أن كل قضايا الميتافزيقا قضايا خالية من أي معنى". [2] ، لأن الحقيقية تتمثل في النجاح، أو الأثر، للفعلي، العملي، أو المعنوي، الذي تولده فكرة أو معرفة ما. [3]

ب- أما العقلانية (le rationalisme) فإننا نقصد بها هنا ذلك الذهب الذي يعتبر العقل الوسيلة ألأول، لأي معرفة حقيقية [4] .

ج- وأما التصوف (mysticisme) فإننا نعني به الاتجاه نحو الزهد واعتبار الحقيقة وليدة القلب، لا الحس أو العقل. [5]

على ضوء هذا التحديد للمفاهيم نعرض الآن للفلسفة البراغماتيية البورسوية ولجذورها ولعلاقاتها بكل من المعرفة ومن العقلانية، من جهة، ومن التصوف من جهة أخرى، لنقول، أولا، أن هذه الفلسفة، أو بالأحرى المنهج الفلسفي، لا يزال، يشكل،

1 -Gérard Deledalle : LA philosophie Américaine,édition, l'âge d'homme,1983.p,59.
2 Cf, -CH.s.Peirce : What Pragmatisme is it ?diverses éditions.
3 - Ch.S.Peirce : .Collected Papers, diverses éditions.,vol.1-8,Cambridge, (Mass),USA,1958-1960.
4-P.F oulquié : diction. De la langue philosophiaue, puf, 1978.
5- _Godet : dict.de la philosophie, Fayard, Paris, 2004.

جذورا ومفاهيمها، منذ نهاية القرن التاسع عشر والى اليوم، مشكلا بالنسبة للعديد من الدارسين له، نظرا لتواجد كلمة البراغماتية، منذ القدم، في الفكر الإنساني، ولارتباطها بالتالي، لا بالعديد من الفلسفات، القديمة والحديثة فحسب، بل وبالعديد من النظريات الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية والتربوية والنفسية، الحديثة منها والمعاصرة علي حد سواء.

عرف مصطلح البراغماتية، المشتق من الكلمة اليونانية براغما (Pragma)، بمعنى شئ أو فعل، (pragmatikos) ، منذ القدم.

فقد ورد هذا المصطلح، أول ما ورد، كمفهوم فلسفي، عند السفسطائيي، بروتاغوراس(Protagoras)، كما ورد بعد ذلك عند كانط (ت E.Kant 1804)[1] بمضمون أخلاقي، وإطيقي (Ethique)، أي بمعنى» تكييف معارفنا ونشاطنا مع الأخلاق»[2] ، وهو النشاط الذي يقوم، حسب» بورس»، علي الشك والاعتقاد، المتجددين، تجدد الإدراك الإنساني للواقع، والهادف إلى الوصول بصاحبه إلي الحقيقة، العملية أو الفاعلة، لا عن طريق الفكر أو التجربة أو الحس فحسب، بل وعن طريق الحدس(l'intiution)، في مفهومه الكانطي. هكذا سيأخذ «بورس» عن»كانط» تلك الحقيقة التي تقول أن الإنسان يجد نفسه، أمام عجز العقل عن فهم الكثير من التعقد الذي يشكل الواقع ومعطياته، مضطرا، إلى أخذ بعض المواقف العملية التي تتطلبها الحياة، استنادا إلى الحدس وبعيدا عن أي جدل منطقي، نظري أو عقلاني، خاصة حينما يكون مثل ذلك الجدل يدور حول إمكانية، أو عدم إمكانية المعرفة، لجواهر الأشياء المكونة للواقع، أو المتولدة معنويا عنه، وذلك مثل أصل الكون وحقيقة العقل والروح ووجود الله وجوهر الروح والجزاء والعقاب الأخرويين ..الخ .[3]

على أن البراغماتية، البورساوية خاصة، في سعيها لعلمنة الفلسفة، إذا كانت

1- E.Kant :L'anthropologie pragmatique, diverses éditions.
2 - Ch.S.Peierce : Collected, (5.1).
3 -E.Kant : Critique de la Raison Pratique, (cpR),diverses éditions.

قد تأثرت، مثل « الكانطية»، بحركة العلوم التجريبية ممثلة في الروح المخبرية(l'esprit de laboratoire) التي سادت عصرها، مثلما تأثرت كذلك بالحركات الفلسفية الأوروبية لعصرها، وإذا كانت قد ابتكرت كذلك العديد من المفاهيم والاتجاهات، التي يعد المفهوم»البورسوي» الجديد للإدراك وللمعرفة وللشك والاعتقاد وللحقيقة، بعض من نماذجها، وهو الذي يهمنا هنا، رفضت، مع ذلك، العديد من أطروحات ومفاهيم، لا تلك العلوم والفلسفات فحسب، وفي مقدمتها الأطروحات»الديكارتية» «والهيغلية»،و»الحسية الإكوسية»، ممثلة في الحس المشترك (commun sens)، مثلما رفضت كذلك الكثير من الأطروحات «المحرفة»، في نظره، البراغماتية، خاصة تلك التي وردت لدى «وليام جيمس»(W.James) و»جون ديوي».Dewey.') «وشيلر» (.F.C.S schiller) ، كما يؤكد ذلك تغيير» بورس» لاسم البراغماتية باسم البراغماتيقية. (pragmaticisme). [1] .

وأخيرا فإن كلمة براغماتية إذا كانت قد وردت بعد ذلك عند العديد من الفلاسفة وذلك من أمثال «اوغيست كومت» (A.Comte m.1857) وموريس بلونديل (M.Blondel) (ت1949) « وهنري برغسون» (H.Bergson) (ت1941) «ونيتشه» Neitzsche(ت1900). وغيرهم فإن مفاهيمها عند هؤلاء ظلت مختلفة من مفهوم «بورس»لها.

2 -المعرفة والحقيقة وازدواجيتهما عند بورس:

لقد اهتم «بيرس» بالمعرفة، مفهوما ووسائل وغاية، خاصة من خلال كتابيه الأساسيين: «تثبيت الإعتقاد»(Fixation of Beleif The)» وكيف نجعل أفكارنا واضحة» ؟(How to Make Our Ideas clair ?).

وإجابة على مثل هذا السؤال الأخير يقول» بورس» أن كل معرفة إنما هي أولا، ومن جهة، معرفة للطبيعة ،أو الواقع،الذي يعني المناقض للوهم.(l'illusion.) والقابل

1 - Ludwig marcuse: La Philosophie améracaine,Gallimard,1967, pp,61-64

للمعرفة، وإن ظل بالرغم من ذلك مستقلا عن معرفتنا هذه له(11).

كما تعني المعرفة لديه أيضا المعرفة للذات، كذلك وفي الوقت نفسه. وهذه المعرفة، التي لا تتم إلا استنادا إلى معرفة سابقة، وليس من الفراغ، كما ذهب»ديكارت» عن طريق الوعي والإدراك، (المختلف في معناه عن المعنى الهوسرلي، (نسبة إلى هوسرل)، (Ed.Husserl)والتي لا تكون، وكما سبق «لكانط» أن أكد ذلك، معرفة لجواهر معطيات هذا الواقع أو الطبيعة،(noumènes) بل لظواهرها فقط، (phénomènes) [1]، لأنها معرفة أقرب، فيما يرى «بورس»، إلى المعرفة العلمية، (التي لا تتوقف إلا عند ظواهر مواضيعها دون اهتمام كبير بجوهرها)، منها الى المعرفة الفلسفية التقليدية أو الميتافيزيقية، التي تحاول يائسة الوصول إلى مثل تلك الجواهر المفترضة. وذلك يعني، وكما يخلص «بورس»، « أن المعرفة ليست مجرد تأمل ونظر، بل إنها قبل كل شيء نشاط وعمل.

وتتم هذه المعرفة،(المتولدة، وكما سبق أن أشرنا، لا من الفراغ كما ذهب «ديكارت»، بل استنادا إلى معرفة سابقة)، [2] والهادفة أساسا إلى تكييف سلوكنا باستمرار مع الواقع المعاش)، أولا، وكما يؤكد «بورس»، عن طريق الإدراك الحسي لمعطيات الواقع المختلفة، وهو الإدراك الذي يتم، بدوره، وكما يضيف، عن طريق الوعي الذي يجد نفسه، وهو يحاول الإمساك بمعنى تلك المعطيات، متوترا بين حالتين أساسيتين اثنتين وهما: الشك (Doubt)، أي التردد والتوتر والقلق [3] ، أمام المعنى الصحيح الذي يجب أن يعطيه للمدرك(Percept) [4] ، الذي يجد نفسه أمامه، وبين الاعتقاد(Beleif)، الذي لا يعني الانعكاس المادي(le réflexe)، والهادف، من خلال سلسلة عمليات أثبتت التجربة فاعليتها، إلى تكوين عادة (Habit) واستعداد للفعل [5]. إن هذا الفعل وحده

1 -Ch.S.Peirce: Collected Papers,(8.12)..
2 -Collected Papers,(5.263).
3 -Collected papers, (,5.265. 5.372).
4 Collected papers,-5.180. 5.181.
5 -Collected Papers,5.400.

القادر، فيما يرى «بورس»، على وضع حد لمثل ذلك التوتر وعلى إعادة الهدوء والتوازن النفسي للوعي، وذلك بالتمكين لصاحبه، من خلال الانتباه(l'attention) [1] ، والجهد الذي يتطلبه(l'effort)، من مثل ذلك التكيف الإيجابي والمستمر مع البيئة، من خلال جدلية االشك والاعتقاد المتجددة، ومن خلال الحقيقة أو المعنى المتولد عنهما، وهو المعنى الذي يعرفه "بورس" "بأنه مجموع الآثار(effects)، المادية، أو المعنوية، المستخلصة من أي فكرة أو شي"، وذلك مثل الصلابة بالنسبة للماس والليونة بالنسبة للعجينة، وهي الصفات التي لا وجود لها إلا من خلال إدراكنا لها. [2] .

نلاحظ هنا أن مثل هذا المفهوم للمعنى (.le sens)، هو الذي مكن «بورس» من تأسيس «علم الدلالة» أو السيميوطيقا(la sémiotique).

كما نلاحظ كذلك أن نفس المفهوم هو الذي كان كذلك وراء مفهومه الجديد للغة باعتبارها أولا ألفاظا دالة على أشياء، كما أنه هو الذي جعله يؤكد كذلك وبالتالي «أن عبارتين مختلفتين لفظا ومتحدتين آثارا هما عبارة واحدة، كما أن عبارتين متحدتان لفظا ومختلفتين آثارا هما عبارتين مختلفتين تماما» [3].

كما نلاحظ أخيرا أن هذا المعيار لصحة الكلام ولجدواه هو الذي دعم الديمقراطية الأمريكية وحرية الرأي والعمل في أمريكا المتعدد الأجناس والثقافات والأديان، كما أنه هو الذي حماهما في الوقت نفسه من الفوضى ومن الكلام الفاقد لأي مصداقية أو مضمون..

نعود إال مفهوم «بورس» للحقيقة لنقول أنه يرى أنها وليدة البحث ([4]inquiry) وأنها ذاتية، مثل ذاتية كل من الشك ومن الاعتُقاد المتولدة عنهما ، علما بأن الشك الذي يعنيه ليس شكا سوفسوطائيا، من أجل الشك، كما أنه ليس، وكما

1 -Collected Papers, 5.997.
2 - Collected Papers,5.402. 5.403.
3 -Collected papers,5.402.
4 -collected papers,5.423.

سبق أن أشرنا، شكا مفتعلا، أو كاذبا، مثل شك ديكارت (doute) factice)، [1] ،(حيث أنه يستحيل أن نبدأ تفكيرنا بالشك في كل شيء كما قال)، بل إنه شك سيكولوجي، حي،(doute vivant.) يولد عند إدراكنا لمعطى من معطيات الواقع ليولد لدينا قلقا وتوترا وطلبا للتفسير(l'explication.) وليدفعنا بالتالي إلى العمل على الخروج منه، من خلال الاعتقاد في معنى، أو فرضية ما حوله، لا نلبث أن نضفيهما، (بعد العديد من المحاولات ومن الأخطاء ومن الاستدلال كذلك (l'inférence)، علي ذلك المعطى. فإذا توافق مثل هذا المعنى مع سلوكنا وفقه ولد لدينا معرفة وعلما جديدين، وإن لم يتطابق، فإنه يدفعنا إلى البحث، من جديد، عن معنى آخر له، حتى يتحقق مثل ذلك التطابق المنشود، بين النتائج المتوقعة والنتائج المتحققة لسلوكنا... وهكذا دواليك عند كل إدراك جديد لمعطيات الواقع. بذلك يولد العلم ويتقدم باستمرار.

إن مثل هذا الطابع السيكولوجي والحي للشك إذا كان يضفي دينامية على الشك وعلى الاعتقاد فإنه هو الذي على الحقيقة طابعها الذاتي ويحولها بالتالي، لا إلى حقيقة، أو إلى معرفة علمية موضوعية أو مطلقة. بل يجعلها، مثل الشك والاعتقاد المتولدة عنهما، ذاتية.

من هنا طابعهما الحدسي(intuitif) لكل من المعرفة ومن الحقيقة عند «بورس»، وهذا بالرغم من منطلقاتهما الحسية والتجريبية بل والعقلانية .

ومن هنا كذلك فإن السؤال الذي وجد «بورس» نفسه أمامه بالتالي هو: كيف أصل إلى الاعتقاد ؟ وكيف أتأكد، في مثل هذه الحالة، من أن ما عرفته، بمثل هذه الطريقة، من حقيقة حول الواقع ، الذي أجهله، والذي قد أعتقد بوجود أشياء فيه، لا وجود لها أصلا، صحيح ؟

للإجابة على مثل هذه التساؤلات فإن «بورس» يلجا، ومثلما فعل «كانط» من قبله، (بالرغم من سعيه نحو «علمنة» الفلسفة، والإبتعاد بها، عما أسماه «أوغسط

1 -Collected Papers, (?5.372).

كونت» بالفوضى العقلية»، أي» المتافيزيقية «)، الى الحدس.

لقد رأى «كانط» أن الإنسان يجد نفسه، في بحثه عن الحقيقة، وسط التعقد الذي يشكل الواقع، مضطرا، إلى اخذ بعض المواقف العملية التي تتطلبها الحياة، استنادا، لا إلى العقل أو التجربة فقط، بل وإلى الحدس كذلك، (تماما مثلما يفعل الطبيب بالنسبة لمريض يجهل تشخيص مرضه)، بعيدا عن أي جدل نظري أو عقلاني، خاصة ذلك الذي يدورحول إمكانية، أو عدم أمكانية المعرفة العقلية، لجواهر أو»كوامن»، الأشياء المكونة للواقع، أو المتولدة معنويا عنه، وذلك مثل أصل الكون وحقيقة العقل والروح ووجود الله وجوهر الروح والجزاء والعقاب الأخريين التي سبقت الإشارة إليها .

أمام هذه الوضعية فإن الإنسان إذا كن يمكنه حل مثل تلك الإشكالات، نظريا، من خلال الاكتفاء بالتوقف عند معرفة ظهواهر معطيات الواقع، كما يفعل العالم، فإنه مضطر في مجال العمل إلى حل البعض من تلك الإشكالات ،التي سبقت الإشارة إلى البعض منها،...إلى فرضيات أساسها الحدس وليس الحس أو التجربة أو العقل.

بمثل هذا الاستلهام للحدس» الكانطي» عمل «بورس» ، بالتالي، ومثلما فعل «كانط» على الخروج بالإنسان وبوعيه من حالة الشك «واللايقين» (l'incertitude)، المفرغين من كل محتوى، وعلى الوصول به إلى الاعتقاد ، الذي لا تصور لأي نشاط عملي للإنسان في حياته بدونة، حيث أن الاعتقاد «البورسوي» لا يمكن أن ينفصل عن الاعتقاد. «أن تعتقد هو أن تعمل وفقا لاعتقادك،كما يؤكد «الكسندر بين»(A. Bain.m.1903) الذي تاثر به «بورس» من بين من تأثر .

ذلك..إن مثل هذا المفهوم المزدوج ،الحسي والحدسي، والعقلي والروحي، الواقعي والمثالي، النظري والتجريبي، للاعتقاد وللحقيقة المتولدين عنه، الذي وصل «بورس» إليهما بدوره، مثلما وصل إليهما من قبله «كانط» في محاولته «إقامة أخلاق الواجب»، هو الذي كان وراء نقده لكل من العقل الخالص(la raison pure) ومن العقل العملي

(pratique la raison.)، [1] ، مثلما كان وراء تحفظ «بورس» إزاء المنهج العلمي وصدق وموضوعية وإطلاقية حقائقه، التي عاد وقال أن معيارها الأول عنده هو مدى الارتياح (la satisfaction)، الذي تحققه لنا، بقطع النظر عما إذا كانت صادقة أم كاذبة [2] . كما أن مثل هذا المفهوم هو الذي كان وراء عودته إلى الميتافيزيقا، مثلما عاد إليها «كانط» من قبل، بعد مهاجمته لهما في محاولته إبعادها كلية، من مجال أي تفكير جاد..

3-إزدواجية المنهج أو الطريق إلى الحقيقة عند بورس:

أمام مثل هذه الطروحات» البورسوية» حول الطابع المزدوج للشك والاعتقاد وللحقيقة، ولتعدد طرقهم أو مناهجهم، فإننا نسأل «بورس» عن الطريق، أو المنهج الكفيل بالوصول بنا إلى الحقيقة التي يلتقي عندها كل الناس.

وإذا كان «بورس» يجيبن على مثل هذا التساؤل «بان ذلك لا يتم عن طريق «الانسجام»، مثلما ذهبت الفلسفة المثالية، كما أنه لا يتم كذلك عن طريق القياس العقلي المنطقي، الذي لا يفيد جديدا، بل عن طريق مناهج ثلاثة»؛ وهذه المنهج هي: منهج الدأب، أو الوثوق (la méthode de ténacité) [3] أي التمسك بفكرة ، نقتنع بها، والدفاع عنها باستمرار، ومنهج النفوذ(la méthode d'autorité)، [4] أي استبدال سلطة الفرد بسلطة الدولة حماية المصلحة الوطنية، والمنهج العلمي(la méthode scientifique) [5] . وإذا كان يعتبر هذا المنهج أفضل المناهج لأنه الوحيد الذي يوصل صاحبه إلى حقائق مستقلة تماما عن أفكارنا وعواطفنا، ولأن العلم، وكما يضيف ، يمثل الوسيلة الأكثر مصداقية لمقاربة الواقع ، فإنه يعود ليقول، أن حقائقه، وإن كانت ليست صادقة دوما أو مطلقة، تظل مع ذلك أفضل من يعبر عما هو حاضر وليس عما مضى.

فالمنهج العلمي»، الذي تختلط فيه الحاجة والوسيلة، هو المنهج الوحيد، حسب

1 -E.Kant: critique de la raison pure.(cpr), Critique de la raison Pratique
2 -Collected Papers,6.486.
3 - collected Papers,5.372.
4 - Collected Papers, 5.382.
5 - Collected papers,5.384.

«بورس»، الذي يؤكد، موضوعيا، ومن خلال قوانينه، وجود وقائع ذات خاصيات مستقلة تماما عن الأفكار التي يمكن أن نكونها عنها..وهي الخصائص التي تشكل، بالنسبة لنا، معني أي معطى، ما، فإن «بورس» يؤكد مع ذلك أنه لا يوصلنا بالرغم من ذلك، ومثل المنهجين السلبقين الى حقائق صادقة بصورة مطلقة أو ونهائية.

من هنا خطا، ما اعتبره البعض تجاوزا، نهائيا، «لبورس»، [1] من خلال المنهج العلمي، «للحدس الكانطي».

ذلك ما يؤكده، على أي حال ، رفضه، في النهاية، للحتمية العلمية المطلقة، معنوية كانت أو مادية ،على حد سواء.

ومن هنا كذلك نفهم تجاوزه لهذا المنهج العلمي، نحو الحدس» وذلك باسم ما أسماه « بالاحتمالية» (faillabilism) [2] ، وهو المفهوم الذي يعني به أن كل الأحكام العلمية افتراضية ووليدة الصدفة، وليست بالضرورة صائبة أو صادقة. حيث أن كل معارفنا تسبح، وكما يضيف، في» أللاوثوق « والغموض [3] .

ومن هنا أخيرا، وليس آخرا، الطابع، أو البعد الصوفي، بل والديني، للحقيقة عند «بورس»إلى جانب طابعها الحسي والتجريبي، بل والعقلاني، وهو الأمر الذي جعله يقول: «إن التشبع بالوثوق في موضوع ما يعني أننا لا نترك مكانا للدين [4] .

هكذا جاءت البراغماتية البيرسوية بتلك الازدواجية، العقلانية والصوفية، التجريبية والروحية ،الواقعية والمثالية، وهي الازدواجية التي كان «بورس» أول من أكد ضرورتها حين قال:» إن لم نتحول إلى زهاد..فكيف نرسخ الاعتقاد ، لدى فرد واحد، ، فضلا عن كل المجتمع؟» [5] .

1 – د.نمير العاني:حول مفهوم الحقيقة في الفلسفة البراغماتية، مجلة الطريق، بيروت،العدد السادس، 1980.

2 -.Ch.S.Peirce :Chance, Love and Logic,p,381. , diverses editions.

3 - Collected Papers,vol,1,171.

4-CH.S.Peirce :Values in Universe of chance,New York,1905,p,400.

5- Collected Papers, Vol. V ,,235.

وذلك ما يبدو أن البض من الدارسين للبراغماتية عامة، وللبراغماتية البورسوية خاصة، الذين اختصروا هذه الأخيرة لديه في الفاعلية وفي الأثر، أو الآثار، المادية منها أو المعنوية، ولم ينتبهوا ، أو لم يعيروا، اهتماما يذكر، لبعض الحقائق التي كان «بورس» أول من أكد ،مرارا، خاصة في نهاية حياته، أنها تشكل المكونات الأساسية لفلسفته، أو بالأحرى لمنهجه الفلسفي هذا، وهي الحقائق التي نورد، فيما يلي البعض من نماذجها.

1- أن الحقيقة، أيا كان موضوعها، بما فيها تلك التي يتوصل إليها عن طريق المنهج العلمي، لا وجود لها إلا بالإنسان، (المكون من العقل ومن العاطفة) ،ومن أجله، وهي ليست بالتالي مطلقة أو نهائية أو ، وذلك لسبب بسيط، وهي أنها متولدة، وكما سبق أن رأينا عن شك وعن اعتقاد ذاتيين ومرتبطين بتلبية حاجاتنا، الفردية، قبل كل شيء وليس بالصدق أو الكذب، وهي الحاجات التي يضيف أننا نعمل على إشباعها بشكل صدفي وعشوائي.

2- إن مثل هذه الخاصية ، الذاتية وغير الموضوعية للحقيقة ولوسائلها هي التي تجعلنا نأخذ بعين الاعتبار، لا فحسب، دور المنهج العلمي في الوصول غلى الحقيقة،بل ودور الصدفة والاحتمال (faillabilism) وهي الحقيقة التي يقول عنها» أنها تتلخص في المنفعة المستقبلية لأهدافنا «[1] .

3- من هنا تأكيد «بورس» على أن أي قانون « وأية حقيقة «إنما هما وليدا الصدفة والعشوائية.

هكذا عاد «بورس»، من جديد، ومثل «كانط»، لا إلى المتافيزيقا، لا ليقول، هذه المرة، « أنها «لغو»[2] ، بل ليؤكد» أنها هي التي تساعد على فهم الكون والفيزياء[3] ، وهذا بعد أن كان قد رفضها بدوره، جملة وتفصيلا، مثلما عاد، كذلك وبالتالة، إلى الدين والى التصوف، حيث أن الإيمان بالله ، الواحد، الفرد الصمد، عنده، وليد تجربة

1 6cH.S.Peirece: Chance, Love and Logic,p,381.
2 -Pièrre Gauchotte : Le pragmatisme :Q.S.J,puf,19992,p,28.
3- Ch.S.Peirece : Collected Papers,5.423.

روحية مباشرة»، وهي التجربة التي تدفعك إلى إغماض عينيك، وفتح قلبك، حتى تراه»؛ فالغريزة هي الضامنة، إذن، وكما يضيف، لوجود الحياة الأخروية.. تماما كما أن الزهد هو الذي يؤدي بنا إلى الاعتقاد وإلى ترسيخ الايمان والعمل، لا داخلنا فحسب، بل وداخل كل المجتمع كذلك.

بذلك كانت البراغماتية، خاصة، والبراغماتية «البورساوية» عامة، من خلال امتداداتها الفلسفية والنفسية والتربوية والروحية والسياسية الخ، الفلسفة الأمريكية الأولى والوحيدة التي نجحت في التوفيق، أو في المزاوجة بين النزعات المادية، ممثلة أساسا في التطورية((l'évolutionnisme وفي الرأسمالية، (le capitalisme)من جهة ،وبين التصور الديني البروتستانتي(le protestantisme) للعالم وللكون، من جهة أخرى.. وبذلك أيضا كانت أحد العوامل التي جعلت الشعب الأمريكي شعبا متدينا بالرغم من الطابع المادي،المسرف بعض الشيء لحضارته ولثقافته ...

فما أحوج عالمنا العربي والإسلامي[1] ، الذي لا حياة له إلا بالدين، ولا تطور له إلا بالفكر والعمل الفاعلين، إلى استلهام مثل هذا المنهج البراغماتي للخروج من مأزقه الحضاري والتاريخي المزمن والمحزن ...

ومن تلك العلوم ،وفي مقدمتها التيار الكانطي ومسلماته، خاصة تلك المتعلقة بالعقل العملي la Raison) Pratique) وذلك من خلال تحويلها لأسس الفعل من المجال الأخلاقي إلي المجال العقلي، باعتبارها لهذا الأخير مكافئا للحقيقة ومعيارها كذلك وفي الوقت نفسه.

ومن خلال رفضها كذلك للمفهوم الإكوسي للحس المشترك(commun sens)، وللاتجاه الحسي البريطاني (Le Sensualisme) الرافض للميتافيزيقا والذي لا يهتم

1 HAMMANA Boukhari : LaPensée de Ch.S.Peirce dans le monde arabe d'aujourd'hui communication donnée, le 07 Septembre 1989 à l'université de Harvard, (USA), et publiée par LAMAR University , Texas,, et par la Revue Algérienne de Philosophie, Institut de philosophie, Université d'Oran, Algérie,1997,no,1.

بتحليل المعرفة، وأصولها، كما هو الحال بالنسبة لجون لوك (J. Locke) (ت1762) ولدفيد هيوم (D. Hume)(ت 1776) ، وهو الموقف الذي يجعلها بالتالي أقرب إلى فلسفة فرانسيس بيكون (F. Bacon) (ت1626)، الذي اعتبره جون ديوي الأب الحقيقي للبراغماتية.

إن نفس الحقيقة تنطبق على نظرية التطور «الداروينية» ممثلة... أساسا، في شانسي فرايت (Ch.Wright) (ت1875)» وسنسر»، H.Spencer والتي أخذت عنها البراغماتية أ مفهومها للمنهج (Méthode) مثلما أخذت عن» فين» (Venn) مقولته حول التحقق عن طريق التجربة (L'expérience Test) ، وهذا طروحاتهما الأخرى.

كما أن نفس الحقيقة تصدق على موقف البراغماتية من نظريات «ألكسندر بين» (A.Bain) (ت1904) النفسية حيث لم تأخذ من نظرياته تلك سوى مفهومه للاعتقاد باعتباره المولد الأول ،لدي صاحبه، لدافع بتفكيرنا.

3-البراغماتية : من العقلانية إلى الصوفية

اتسمت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، التي شهدت ميلا الفلسفة البراغماتية، لا فحسب، بدخول الفلسفة الأمريكية مرحلةها الثالثة، مرحلة نضجها، العالمية الثالثة (1945.1865)، أو بتوطد التيارات العديد من التيارات الفلسفية الأوروبية الوافدة والتي كانت جامعة هارفارد من أكبرها، خاصة، الواقعية النقدية (Le réalisme critique) والداروينية والواقعية الجديدة (Le Néo Réalisme)، والمذهب الطبيعي(Le Naturalisme)، والمثالية (L'idéalisme) والبراغماتية LE Pragmatisme[1]، بل إنها تميزت كذلك بالتحلبل العقلاني للدين و بطغيان التيار التجريبي (L'expérience)، والروح المخبرية (l'esprit de laboratoire) اللذان أصبحا، خاصة في جامعة هوبكينغ (Hopkins)وهارفارد،(Harvard)، المعيار الأول للعلم وللحقيقة..بل وللحياة ، فيم عرف بطريقة أو نموذج الحياة الأمريكية.(The American Way)...

1-.Schneider, H.1955 :399

في مثل هذا الأجواء ازدهرت العلوم الكيميائية والبيولوجية والرياضية والفيزيائية... والهندسية والإنسانية (الاجتماعية والنفسية)، إضافة إلى المقاربات العقلانية والتجريبية للدين [1] . وهي المقاربات التي أكدت أن الاعتقاد الديني، أيا كان، يجب أن يصل عمليا، بصاحبه إلي الله... من خلال تأثيره الايجابي والملموس في سلوكه... وذلك ما تحقق، من خلال التيار البروتستانتي الذي يعد الحليف الأول لليبرالية الأمريكية.

إن هذه العوامل، وغيرها، هي التي حولت البراغماتية،(المتشبعة أولا بالواقع الأمريكي المتعدد جنسا ولونا، ثقافة وحضارة ،عقيدة وأخلاقا)، لا إلى نظرية في الحقيقة المجردة، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الفلسفات ،القديمة منها والحديثة، بل والمعاصرة، بل إلى منهج للعمل، وهو المنهج الذي وجدت فيه الرأسمالية، (le capitalisme)وابنتها الليبرالية(le libéralisme) دعما كبيرا لها ولأطروحاتها ،الاقتصادية منها والسياسية، (التي استقت منه، منذ 1776 مبادئها السياسية والاجتماعية السبعة عشر التي تحكمها) مثلما استقت منها كذلك العديد من مبادئها الأخلاقية والفنية.....

أمام هذا التواجد البشري المتعدد، المتنوع، والمختلف في كل الميادين تقريبا، فإن التجربة،وحدها، ممثلة في نتائجها العملية، أو المعنوية الملموسة، تصبح في هذه الحالة المعيار الحقيقي والصحيح «لكل ما يقدم أو يقال، ولقبول الجميع بها ونتائجها تلك»4 مثلما تصبح أي فكرة عن أي شيء فكرة عن أي شي فكرة عن آثاره المحسوسة.6)

هكذا جاءت البراغماتية معبرة أولا وقبل كل شئ عن الواقع الإنساني والاجتماعي والسياسي الأمريكي خاصة ..

ولهذا نحن نعيش زمن انكماش الفرد كنف توتر صدمة الايدولوجيا ولكن هذا لا يعني أن التحرر من الغرب يعني بذلك موت الايدولوجيا أو نهاية الصراع أو الخروج من أزمة تسليط المذهبية (ldée-force) وتعتيم حرية الفرد أو كما ذهبت إليه فكرة هوبز

1-White, M. 1963:35

(ت1679) ،أن الإنسان أصبح ذئب لأخيه الإنسانُّ. فالحقيقة الليبرالية تتبع الاعتقاد الفردي.

فالتجربة نتيجة أساسية للفكر...كما قال جون ديوي ولا يمكن تصور حياة أو فكر بدونها كما أضاف. أما بيرس فقد أكد أن كل ما يقدم أو يقال يجب أن يقود إلي تجربة ذات نتائج وإلا فليس له معني.

هكذا نصل إلي المفهوم «السفسطائي» (Les sophistes) (القرن الرابع والخامس قبل الميلاد) للحقيقة وللاعتقاد وهي الحقيقة أو المفهوم الذي حول الإنسان إلي مقياس لكل شيء، كما ذهب بروتاغوراس (Protagoras) (ت 410 ق م) وغيره من السفسطائيين، فإننا نجد أن الحقيقة قد استعادت من جديد ومرورا بالسفسطائية ووصولا إلي البراغماتية طابعها الحركي والدينامي الذي كان لها أيام الأيونيين. فالحقيقة مما رأوا مرتبطة بنا ولا وجود لها بالتالي خارجنا.كما سيؤكد ذلك بيرس وغيره من رموز البراغماتية.

إن هذا المفهوم النسبي والحركي للحقيقة وللشك كذلك وبالتالي، هو الذي سيشكك فيه وسيرفضه سقراط (Socrate)(399ق م)، الذي عايش بداية انهيار أثنا خاصة بعد هزيمتها أمام إسبرطة (Sparte) والذي حدد معني الحقيقة والاعتقاد في كمال العلم والعمل وطالب، استنادا إلي ذلك، بإعادة بنائها داخل الفرد الأثيني انطلاقا من مقولته «المعرفة الصفر المشهورة «La connaissance du degré zéro» «أنا لا أعرف شيئا سوي أنني لا أعرف».

ولم يفعل تلميذه أفلاطون (Platon) (ت 349ق م) سوي البحث عن مثل هذه الحقيقة السقراطية في عالم المثل، بدلا من الواقع كما فعل سقراط مع حصرها في نفس الوقت ومثل أستاذه في ثلاثية «الحق» و«الخير» و«الجمال»Le Beau _ Le Bien _ Le Vrai)، مشكلا بذلك وبالتالي فكرته عن «المثل «les Idées)) والتي وضع علي قمتها

فكرة الخير...مشككا بل ومستبعدا بذلك الواقع الحسي... باعتباره إياه وهما لا حقيقة.

أما أرسطو (Aristote) (384ق م)، الملقب نتيجة لجهوده الفكرية الكبرى والمتنوعة بالمعلم الأول، فقد رفض مثل هذه الحقيقة المثالية التي قال بها أستاذه أفلاطون مفضلا عليها تارة الحقيقة المنطقية الشكلية (La vérité logique formelle) والاعتقاد المنطقي بالتالي، وتارة أخري، الحقيقة المستمدة من الاستقراء (L'induction) التي رأي أنه لا مجال كبير معها للشك فيها.

إن هذا المفهوم الأرسطي السكوني للوجود وللحقيقة وللشك ولليقين وللاعتقاد كذلك والذي امتد إلي مختلف مجالات المعرفة عند صاحبه، هو الذي ستأخذ به، وطيلة ألفي سنة، العديد من المدارس الفلسفة المختلفة، ومن ضمنهم ديكارت ومدرسته، مثلما أخذت به من قبل «الأبيقورية «(L'Epicurisme) التي حولت الحقيقة إلي متعة، ثم الرواقية (Le stoïcisme) التي ربطتها «باللوغوس» (Logos) أي بالعقل العام المسير للوجود.

وكذلك فعل الشكاك (Les septiques)، علي اختلاف اتجاهاتهم «بيرون» (الشك الخلقي) «أجربا» (الشك الجدلي)، وأخيرا «سكتوس أمبريقوس « (الشك التجريبي).

وكذلك فعلت المسيحية وتفرعاتها من الغنوصية والأفلاطونية واليهودية وغيرها من المدارس الدوغمائية الفلسفية في العصور الوسطي، التي حاولت ،مثل اليهودية التي سبقتها، ودون جدوى، توظيف مجمل المفاهيم الأرسطية للحقيقة المؤدية إلي اليقين خدمة للمسيحية مثلما فعل «أفلوطين» (Plotin) (ت269م)، و»القديس أوغسطين»(Saint Augustin) (ت 430م) وغيرهم من الفلاسفة المسيحيين ومن رجال اللاهوت المسيحيين خاصة الأوائل منهم.

لكل ذلك فإن الثورة علي مثل هذا المفهوم الأرسطي للحقيقة وللاعتقاد وعلي غيره من العديد من المفاهيم الفلسفية القديمة الأخرى، لم تكن بالتالي عن طريق»الغزالي»

بل عن طريق كل من بيكون (F. Bacon) (ت 1626 م) ومنهجه التجريبي، إلي حد ما، وديكارت وشكه المنهجي الهادف إلي الحقيقة ممثلة في الفكرة الواضحة والمتميزة وغيرهم من المفكرين اللذين شكلوا ما عرف ببداية العصور الأوروبية الحديثة وذلك من خلال مفاهيمهم جديدة للحقيقة وللشك وللاعتقاد وللوجود... الإنساني بالتالي.

ولقد تم هذا التحول الجذري الذي شهدته الحقيقة، ومن خلالها الشك، نتيجة للتطور الذي شهده العلم، خاصة، في مختلف المجالات... وهو التطور الذي سيحاول البعض من الفلاسفة «كانط»(E Kant) (ت 1804)، خاصة ودون نجاح كبير، نقله إلي الفلسفة وإلي الحقيقة أو الحقائق الحاملة لها. مثلما حاول رجال الدين، ولا يزال التوفيق بينها وبين الدين.

أما «هيغل» (Hegel) (ت 1831م)، تلميذ كانط، فسيرتفع من خلال مثاليته العقلانية بالحقيقة وبالشك وبالاعتقاد إلي آفاق العقلانية أو العقلنة، المجردة والدينامية، المتجاوزة للتاريخ باعتبار الحقيقة مثل الفكرة (L'Idée, La Conscience) ظاهرة ديناميكية جدلية أبدية وهادفة إلي التطابق في النهاية مع الحرية التي تمثل جوهر الوجود والهدف النهائي والأعلى للتاريخ. فهيغل يرى أن الروح اللانهائي، أو الفكرة المطلقة، هي حقيقة وأساس الوجود، وليس المادة. التي ليست سوي مجرد تجلٍّ من تجليات الروح. فالكون روح واحدة تتجلى من خلال المنطق الجدلي المعبر عن دينميتها المتجددة (صيرورتها)(Le devenir) وفي شكل أو سلسلة مراحل متتالية.

هكذا تنتقل الفكرة (Thése) والكون المتجددة من خلاله إلى نقيضها ثم يتصارع النقيضان(Anti – Thèse) ويتفاعلان، فينشأ عنهما مركبهماSynthèse)) ممثلا في فكرة جديدة مركبة منهما. إن هذه الفكرة المركبة لا تلبث أن تمر بدورها بنفس المراحل... وهكذا دواليك.

إن هذا المفهوم المثالي، العقلاني، المجرد والمطلق للحقيقة، باعتبارها، صيرورة،

أي ظاهرة دوما في طريق التطور والاكتمال، الذي يولد ويتواري أمامه كل شك بالتالي وباستمرار. هو ما سيرفضه بدوره تلميذه كارل ماركس (Karl Marx) (ت 1883) الذي سيربط الحقيقة المتولدة عن جدلية هيغل بالفعل (Praxis) في الواقع الاجتماعي معيبا بالتالي علي الفلاسفة أنهم لم يفعلوا سوي التنظير... للعالم... في حين أن المهم هو تغييره.

أما نيتشه (F Nietzsche) (ت 1900) أحد رموز الحداثة فيرى أن الحقيقة، باعتبارها وليدة الفكر أساسا. ليست مجرد انعكاس للواقع بل إنها مجرد مظهر زائف له، فيجب أن تعبر بذلك عن «إرادة القوة» (La volonté de puissance) معارضا بذلك لا مفهوم «كانط» أو «هيغل» فحسب، بل ومفهوم أستاذه شوبنهاور (Schopenhauer) (ت1860) الذي اعتبره مناديا وداعيا مثل المسيحية إلي أخلاق العبيد» أي إلي قبول بكل ما في العالم أو الوجود «في حين أن الحقيقة النيتشوية هي ما يضاعف لدي الإنسان نبض الحياة و القوة.

وإذا كان رد فعل «هوسرل» (E Husserl) (ت1938) علي هذا المفهوم النيتشوي للحقيقة، سيكون بربطها بالوعي الفردي المعاش وليس بالعقل أو بالقوة. فإن رد فعل هيدغر (M .Heidegger) (ت 1976 م) سيكون بالمطالبة بالعودة بها إلي الوجود الإنساني في معناه الأنطولوجي، وذلك من خلال فكرة «الدازاين « (Dasein) (الوجود هنا)، حيث أن الحقيقة في نظره توجد في مثل هذا « الوجود هنا»، ما دام هذا الأخير لا يتمكن من التعبير عن ذاته وعن الكشف عن حقيقته. ولأن مثل هذا الوجود هنا يحتاج إلى من يقوم بذلك بدله، وهو الإنسان، فإن هذا الأخير هو الكائن الوحيد الذي تتجلى فيه حقيقة الوجود.

إن نفس الحقيقة تصدق تقريبا علي «هنري برغسون» ((H Bergson(ت 1941) (Bergson, H.1965 :91) وعلي مفهومه للحقيقة، وللشك والاعتقاد، وهو المفهوم الذي يري أن الحقيقة وليدة الشعور الحدس (L'Intuition) في مفهومه الذاتي والحركي

الأقرب إلي المفهوم الصوفي، وهو الحدس الذي ينقلنا، روحيا، من المقدمات إلي النتائج مباشرة وبدون وساطة ليتطابق مع ما فيه من فردانية... لا يمكن التعبير عنها بالتالي.

أما «الوضعية المنطقية» (Le Néo Positivisme) المحدثة ممثلة في مدرسة فيينا فإنها ستربط مفهوم الحقيقة بالمفاهيم اللغوية ومدي قابليتها علي الدلالة عن الأشياء الواقعية الموجودة في العالم. مثلما ربطت الوضعية المنطقية الأولي ومن خلال أوغست كومت (A.Conte) (ت 1857) الحقيقة بالموضوعية وبالمنطقية خاصة المادية منها خاصة.